

كل ابواب الفن تحمّل مفايحها !

بقلم ابراهيم شعراوي

فما عاد الكلام عنه عملا دعائيا ، والسبب الثاني انه من كاتب مخلص للقيم ولا يهتم بالاضواء الخاطفة فنحن امام عمل فني حقيقي لم يتقدم به صاحبه لغير وجه الفن الخالص ، واية فينته انك قد تتفق معه او تختلف ولكنك تنجذب اليه فلا تتركه حتى تكمله رغم انه لا يثير انتباهك بانارات قشرية جنسية او عقيدية او سياسية ، ومن الكتاب اختصار قصته « صانع التماثيل » . ومن الشعر اختار ديوان « اقول لكم » للشاعر صلاح عبد الصبور ، اما لماذا اختار هذا الديوان فلان الجدار السميك المقام بين المدرستين الكلاسيكية والحرة قد ازداد صلابة . ومجرد عرض نموذج من اي نوع يعرضني لقبس القبيلة الراقبة على الجانب الاخر من الجدار . وانا احب الشعر الكلاسيكي والشعراء التقليديين ، بل اني ارى ان حقولا كاملة جال فيها عماليق هذا الشعر لم يجدوا فيها النقاد الذين يقفون في مستواهم او في مستوى الحقول . ولكنني حين ابحت عن الشعر الذي يناقش قضايا ويشير الفكر وينعش الخيال فانني لا اجده في الكلاسيكية بهذه الوفرة والعمق الذي اجده في نماذج الشعر الحر القليلة الجيدة من شعر نجيب سرور واحمد كمال زكي وكمال نشات وفوزي العنتيل وحسن فتح الباب وكمال عمار . وشخصية شوكت المثل في قصة نقولا يوسف تستوقفنا ، فهي لفنان مجيد يشترك في مسابقة الدولة لصنع تماثيل للحرية يوضع في ميدان عام ، وينجح تماثله ويحصل هو على جائزة سخية ينقلها عن اخرها قبل موعد اذاحة الستار عن التمثال . « واخيرا جاء شوكت الى مكان الحفل متأخرا مهرولا يخترق زحمة الجماهير وهو يتصبب عرقا . » ولكن الزحام انتصر على جوده فوجد نفسه خارج السرادق . ثم بدأ الحفل وحضر مندوب الملك وغلبت الفنان عاطفته « فقفز متسلفا عمودا خشبيا من اعمدة السرادق وحاول ان يزع بنفسه ليرى ماذا يصنعون » . ويامرهم الجنود بالنزول فيرفض فيشدونه دون ان يستمعوا الى كلمة منه ويضربونه . ويأتي ضابط يأمر بسوقه الى قسم الشرطة حيث يقضي ليلائه .

هذه القصة توظف في نفوسنا فكرة الجزاء غير العادل ، فهذا فنان يدلف حياته لبلاد تمثت به وبحياته ، ولكننا حين نرى فوضى حياته ، تلك الفوضى الاختيارية ، فاننا نرى ان ما ناله فيه كل العدالة . فالدولة منحته الجائزة وحاولت ان تيسر حياته في تقديرها وهو لم يرد الا الشقاء . وما « اللافتة » او المغزى الانساني من القصة ؟ . وهل شخصية شوكت هذه حقيقية ام تصويرية ؟ . نحن الشعراء والادباء ننكر واقميتها وكذلك احبابنا ينكرون ، ولكن حافظا والديب والعبد من شعراء بلادي يسخرون من المنكرين فقد كانت حياتهم فوضى لا حد لها ، فما ان نلمس طريقنا الى امثال شوكت في مجال الفن حتى نجد صفا سميكا من الفنانين المستقرين في حياتهم يقف حائلا بيننا وبين النموذج .

ان « شارلي شابلن » في « انوار المدينة » قدم نموذجا لاهتزاز ميزان العدالة في احتفال مهيب لرفع الستار عن تماثيل حقوق الانسان ، فقد كان لبؤسه ينام تحت ستار التمثال ، وحين اذاهوا الستار عن التمثال بين التعطيق والتهاتف احس بنور الشمس يسلم عينيه فنهض يعدو من سريره الرخامي باحثا عن ماوى جديدة . ولكن ... لو ان تلك الدولة كانت قد منحت شابلن بيتا فبامه وانفق لمنه على ملذاته واتى ينام

كل عمل فني يحمل مقياسه معه ، ومن العبث ان نفع اثرا فنيا تحت مقياس حدناها قبل ولادة هذا العمل او قبل ان ناتي به الى مجال الاختبار ، ومن الخطا ايضا ان نجبن امام العمل فنظن انه اعلى من المقياس والمعايير والاوزان . وان اصعب ما يمر على الناقد من معاناة لن يكون الا في جهده المتواصل للكشف عن ذلك المقياس الذي يحمله الاثر الفني كما يحمل الشهيد صليبه فوق كتفه من اول يوم قرر السير فيه في طريق التضحية والبذل ، او كما يحمل المسافر في البحر طوق النجاة من اول لحظة يضع فيها قدمه على السفينة والبحر هاديء والنسيم عليل .

ولست اتحدث هنا عن خرافة الخلود بل عن المساهمة والمسايرة لمجالات الزمن وهي تطحن القش والقمح جميعا ولا تبقى على شيء الا الذكريات الضبابية في مخيلة الانسانية عن شكسبير او كيركجورد او هيرزن مع اختلاف الوان الطحين الذي قدموه . وبدون العثور على المقياس من قلب العمل يصبح شكسبير مجرد متحدث عن الفيرة والبلاهة في عطيل والثاني انساني نكد الحظ مريض الوجدان والثالث فتى غرا يريد ان يحول الاقلام الى فؤوس ومسامير !!

وانا اتكلم اليوم - لا متفضلا بل - لانه لا بد ان تظهر الحقيقة سواء قلتها او سكت عنها عن عمد مني او عدم تقدير لسئولية الكلمة او داهمني الحمام قبل ان انطق بها . ولاني قلت شيئا من عشر سنين . باصرار وكرته حتى كنت ان اصدقه لما له من بريق خلاب يجذب الاذكياء قبل السذج الاغفار ، ثم عشت حتى رايت الكرات الماسية التي مجدهما تنفجر امامي لانها كانت مجرد فتاقيع . ولماذا اقفز هكذا الى الخواتيم ولا زال امامي طريق طويل كله فروض ومقدمات وادلة وتجارب ومشاهدات واحصائيات وحياة كاملة اصبحت فيها قليلا واخطات كثيرا ، وكنت في كل لحظة صادقا مع نفسي ومع الناس .

ولكن من اين ادخل الى موضوعي وهو مثل بيت « جحا » به عشرات الابواب التي تنفذ الى الجانب الاخر من الطريق دون ان تمر على حجرة واحدة من حجرات البيت العجيب ! ولكي لا ادوذك معي في متاهات ومجاهيل اطمئنك ان مراجعاتي تتصل بالشعر الحر والكلاسيكي ومشاكلهما من خلال مشاهداتي وتجاربي في هذه السنوات التي تزيد عن العشر ، والقصة ومدارسها من خلال تجارب الشباب الذي تحمس فترة لناهجه ومدارسه تحمسا كاد يخرج المسائل عن منطق الرؤوس والقلوب الى منطق الايدي والخناجر بل والخناجر ، والمسرحية بين العامة والفصحى بين المصققين والمصفرين ، وقضايا كثيرة قد لا اذكر عن كثير منها كلمة واحدة ولكنني اتق الجدار على المقدسات الفنية ، ولن يكون الذنب ذنبي اذا سمعت معي صوت التماثيل وهي تتشقق وتتحطم والايدي المعنيدة تحاول ان تجبر وترقى وتسد محتويات العبد للابقاء على هيبة يعوزها الدليل .

وانا - كمدخل لهذا الموضوع - اختار قضية صغيرة لاعادة النظر فيها قضية « البطل » في القصة القصيرة . ومن النماذج اختار كتاب « دنيا الناس » للكاتب نقولا يوسف . اما لماذا اخترت الكتاب فلسبيين : السبب الاول لانه صدر عام ١٩٥٠ اي في اوضاع سياسية مختلفة تماما عما هي في الاقليم الذي عاش فيه الكاتب وهكذا يعطي قلبي مزيدا من الانطلاق ، وهذه الفترة الطويلة قد حددت رايها في الكتاب

عيسى وتصور عودته الى ايطاليا موطن دعوته ومقر البابا ، ان الكاتب الذي تصور بعثة تصور كذلك عدم تجاوبه مع رجال دينه الذين صلبوه مرة اخرى ، صلبوه وهو المنتصر الذي انتشرت كلماته في الافاق (تصليبي باشجر الصفصاف لو حملت ظلي فوق كتفي ، وانطلقت وانكسرت - او انتصرت » .

وعبد الصبور لا يمارك بشيء ولا يبشر بشيء ولكنه فقط يعري المجتمع ويشير فيك حب الاستطلاع لتحملق انت الاخر ثم ينقل اليك احساسه بالسام وفقدان طعم الحياة ، وليس من الضروري لمن يقول لك : اولادي باتوا بلا عشاء ، ان يطلب منه شيئا من العون فهذا يصنع ذلك .. اما كيف يخيفنا الشاعر من وفوفنا عند قمة المنحدر المائل ففي نموذجه عن الملاح الذي تحطمت سفينته على جبال الملح والقصدير « ملاحنا اسلم سؤر الروح قبل ان نلامس الجبل - وطار قلبه من الوجمل » وفي اللمسة الاخيرة التي بها تكمل الصورة يقدم عبد الصبور هذه الكلمات « هذا زمن الحق الصانع - لا يعرف فيه مقتول عن قاتله ومتى قتله - ورؤوس الناس على جثث الحيوانات - ورؤوس الحيوانات على جثث الناس - فتحسس راسك - فتحسس راسك » ومجرد ان نعرف هذا القتام يشير فينا سؤالا اخر هو « ما العمل ؟ » وهذا ليس دور الشاعر ولكن حسبه انه اثار فينا غريزة التطلع .

وهكذا نرى في المثالية بطولة لا تعلن عن نفسها ولكنها تفرض وجودها في وجدان المتلقي وتنتشر في كيانه على جهل ، بطولة تبدو في ظاهرها سلبية مهزومة ذليلة ولكنها تستمد عظمتها من اثارها وتحفزها فهي لاتحقق التمرد بالصراخ بل بالهمس الاخوي الذي يرتب على كتف المتلقي ليتيح له بعد التأمل ان يصنع شيئا .

ابراهيم شعراوي

القاهرة

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من

سَارَتْرَ وَالْوَهُودِيَّةِ

كتاب لا بد ان يقرأه كل من يريد ان يفهم آثار سارتر

تأليف

ر. م. البيريس

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

سَوَاتِرَ دَارِ الْآدَابِ - بِيْرُوتَ

على التمثال ، فاننا حتما كنا سترجمه بالحجارة او على الاقل نعتبر نومه جزاء عادلا لاسرافه وفوضى حياته . وبهذا الحكم نصبح كالذي يحاول ان يفتح بابين بمفتاح واحد احد لاحدهما ، فاما ان نكسر الباب او نكسر المفتاح .

ان شوكت نموذج لآلاف الناس الذين ليسوا اذكيا ولكنهم شرفاء ومفيدون لمجتمعاتهم . وفي امريكا ثار الزوج لانهم عاشوا في ارض بلا حرية . وانتصروا اول انتصار حين حصلوا على حريتهم ولكن تلك الحرية كانت شوفا عليهم وترفقة عنصرية واضطهادا .. لماذا ؟ لانهم كانوا يعيشون في ارض بلا حرية فاذا بهم بعد الصراع يحصلون على حرية بلا ارض ، فاذا هي حرية العذاب والمرارة والحرممان . فهل نقول ان ما نالهم هو جزاء حقيقتهم وجهالتهم ؟ ان ماساة الزوج في امريكا هي احدى الصفات الصنيفة على قفا الانسانية في القرن العشرين . ومع ذلك فانا لا ازمع ان الزوج اذكيا او معجزات في الفكر ، ولكنهم بشر ، وهذا وحده يعطيهم الحق في الحياة الابدية . هكذا يعلنا « شوكت » نموذج الفنان المبدع نقولا يوسف ، وهو يعري لنا المجتمع الذي لا يطيق احتمال من لا يسير على القصبان الرسومة حتى ولو كان هذا التمرد فنا عظيمنا .

ان شوكت نموذج فردي ، ولكن النوبيين وهم سكان المنطقية الجنوبية من الاقليم المصري قد فرقت ارضهم لبناء خزان اسوان وتعليته ، واعطتهم الحكومة تمويفا في ذلك الحين فانفقه النوبيون بلا حساب ثم عادوا يعضون اصابع الندم ويعملون خدما في البيوت . هل تستطيع ان تقول ان ما يجنونه من الالام هو جزاء لغفلتهم واسرفهم؟ ان المجتمع حلقة كبيرة ذات تروس وكل ترس يقوى الذي يليه ويقوى به . انه مجموعة اجزاء متعاونة تكون كلا موحدنا في المجتمع . يعد المحاسب النقود ويدافع المحامي عن المتهم ويرسم المهندس البناء ويداوي الطبيب المرضى ويسهر الشرطي على امن النايمين . فاذا وضعنا الشرطة في دور الصحف والصحفيين في معامل الادوية وتركنا المحامين يرسمون البيوت والنحاتين يديرون وسائل الانفاق فانا نحصل على الفوضى وينضج المجتمع بالآلاف النماذج من امثال شوكت . ارايت كيف يفتح الباب بسهولة ويسر حين نجد المفتاح ، اقصد حين ندير المفتاح فكل باب في الفن يحمل مفتاحه .

ومن قصيدة « الظل والصليب » يقدم لنا الشاعر عبد الصبور ازمة العصر كاملة . في قصيدة واحدة وبلسمات سريعة مع قدرة فنية مبدعة وبالالتجاء الى الرمز في اجزاء منها والهدير الصارخ في اجزاء اخرى استطاع الشاعر ان ينقل الى اعماقك كل ما يجيش في نفسه وكسل احساسه نحو عصره وواقعه ومحتنه ، ومع ذلك فما اكثر المعايير النقدية التي بها تصبح هذه القصيدة شيئا لا يستحق مجرد القراءة لا التقدير والتحليل ، اقصد ما اكثر الماتيج التي تتحطم دون ان يفتح الباب . ان قصيدة الظل والصليب مرحلة يمكن ان نؤرخ بها الشعر مثل قصيدة « من اب مصري » ومعلقة امريء القيس وظهور مدرسة ابولو ، ومثل كل الهزات التي بمثت في ركود الشعر حركة ونبضا ولا انسى في مقدمها الحركات الوطنية والهزات الاجتماعية .

القصيدة من نوع قصة « كوخ العم توم » تلك التي لاتقدم جملة واحدة توحى بالتمرد ولكنها تساهم في ثورة العبيد وتشعل الحرب الاهلية في امريكا . انك توقف الانسان امام مصيره وفي يده الخيار بين ان يموت لان له عقيدة او غاية او بعض الاحلام او يعيش على الارض بلا ظل يصلي مع المصلين ويهتف مع الهاتفين ولا يقول ما لا يصح ان يقال صراحة ولا همسا ولا تلميحا . ولكن ما القسى ان يعرف الانسان كم يصبح شائها وهو بلا ظل انه يصرخ فيما جعله يحيا بلا ابعاد ولا امام ولا امجاد ويمضي بلا ظل بلا صليب « قلتم لي - لاتدسس انك فينا لايعني جارك - لكني اسألكم ان يعطوني انفي - وجهي في مرآتي مجدوع الانف » ان طريق الحياة ميسر للاممات والتابعين والديول ، اما الذي يسير في طريقه حاملا ذاته التميزه وانسانيته فلن يهنا بالامن ولا السعادة لانهم سيصلونه اذا انهزم كما سيصلونه اذا انتصر . وهنا نتذكر نبي الله